بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الثانية

بقلم الدكتور عبد القادر فيدوح

ترجع صلتي بديوان طرفة بن العبد إلى أكثر من عشرين سنة خلت، حيث كُنت مُقدماً على اختيار موضوع في الدراسات العليا لنيل درجة الماجستير، في جامعة وهران، فاقترح عليّ من أكُنُّ له في نفسي كل مودة وتقدير، صديقي «عبد الله العشي» حينذاك، ديوان طرفة بن العبد لأتناوله بالدراسة. وبعد قراءتي الأولى للديوان بهرني بما احتوى عليه من أشعار تكاد ترقى إلى مستوى الفكر الفلسفي، فاعتبرته نادرة زاهرة من نوادر الشعر الجاهلي تستدعي التوقف عندها، وتستحق الدراسة فيها. فاطلعت على أشعار لم أطلع عليها عند الشعراء الآخرين، فإذا هو بحر موّاج، لا يدركه إلاّ من أحاط بأشعار الحكماء. وأحسب أن القارئ سيشاركني الرأي في امتياز شعر طرفة بن العبد من خلال هذا الديوان الذي قد يجد فيه شرعة المتفكر والمتذوق.

وتشاء الأقدار بعد مرور كل هذه الفترة الزمنية أن أجد نفسي في البحرين، عضواً ضمن هيئة التدريس في جامعتها الماجدة، وخلال وجودي صادف فعاليات ملتقى طرفة بن العبد، والذي أشرف على تنظيمه المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وحينذاك، كنت قد شرفت بإلقاء المحاضرة الافتتاحية، حضرتها شخصيات بارزة، ترأسها سعادة وزير شئون مجلس الوزراء والإعلام رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، واتضح لي حينها أن هذه المحاضرة ينبغي أن تكتسي صبغة خاصة تستحق معها أن أبدي اقتراح إعادة طبع الديوان، على الرغم من طبعه في سوريا من مجمع اللغة العربية، وبكمية محدودة سرعان ما

نفدت، عدا الطبعات الأخرى غير المحققة. وقد حرصت في أثناء تدخلي على إثارة هذه الفكرة، على أمل أن يُعالج الموضوع مستقبلاً بجدية مع من يعنيهم الأمر أكثر، فما كان من سعادة الوزير الأستاذ الفاضل «محمد ابراهيم المطوع» إلاّ أن رحّب بالفكرة، فتحول هذا الاقتراح بفضل رجالات إدارة الثقافة والفنون بالمجلس ، إلى إرادة، فعزيمة، فعمل، وُضع موضع التنفيذ، وظلّ التزاماً قطعوه على أنفسهم، واستجابوا لضرورة حضارية استشعروا قيمتها، ولبوا نداء الواجب في إعادة طبع الديوان، فتحقق هذا الغرض السامي لإخراج هذا الديوان بأبهى حلة. لذا أكن لهم في نفسي كل مودة وتقدير بسعيهم المستديم.

وإذ أسدي جزيل الشكر المتواصل إلى كل هؤلاء بإعادة طبع الديوان بهذه الجودة والنضارة، أثمن جهود مجمع اللغة العربية وبخاصة المحققين: درية الخطيب، ولطفي الصقال اللذين قاما بتحقيق هذا الديوان المتميّز الذي نعتز به ونقدّره، وهو جهد محفوظ لصاحبيه لما بذلاه من عناية فائقة وروح عالية بأجود التحقيقات، وأتقن التدقيقات، وتنوع الفهارس ، وقد أحسنا صنعاً بإنجازهما هذا، حيث عملا بدأب على جمع «ما عثرا عليه في بطون الكتب والدواوين والمجاميع والتراجم وكتب اللغة والأدب» من أبيات ومنتخبات أو مقاطع كانت صلة للديوان الذي شرحه الأعلم الشنتمري. كما أضافا في هذه الطبعة الثانية تسعة أبيات وشطراً واحداً وهو ما عثرا عليه بعد ذلك.

وبعد هذا كله، فلنا الأمل أن نجد في هذا الديوان لُمعاً من فوائد تروي المتلهف الظمآن بنهلة ماء بارد، والاستفادة من ينبوعه كلما علّ متذوق من سيله جرعة، ليزداد طلباً لجرعات أخر، ولا غرو في ذلك ما دام للشاعر مقام الحكيم في هذا الديوان، يعتز به الشعر، والفكر، والقيم الفاضلة.

ولئن كنت لا أعتمد في هذا التقديم إلاّ أن يفهم القارئ مكانة هذا النابغة المحلّق لشهرته الطائرة، ودون أن أتعرّض لحياته، فلست بناس ما روي في الحديث الذي ورد في أدبيات الفقه والشعر وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال: بلغني أن عائشة سئلت: هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يتمثّل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا، إلاّ طرفة حيث يقول:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

وفي هذا إشارة إلى معظم فضائله التي وجدت مكانتها في الإسلام فيما بعد.

وكان الدارسون والنقاد يقدمونه على كثير من الشعراء لما أحسوا فيه من الإباء والعزة والفتوة. ويجدر بنا هنا أن نقف إلى ما قاله الجاحظ في البيان والتبيين من «أنه ليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد» ومهما حاز طرفة من رفعة الحسب والنسب وانتمائه البكري من نسب الأب، والتغلبي من نسب الأم، جامعاً بين حيين عريقين وهو ما ينبئ عن قوله:

وتفـــرعنا من ابني وائل   هامة العز وخرطوم الكرم
من بني بكر إذا ما نسبوا   وبني تغلب ضرّ ابي البهم

مهما افتخر بهذا النسب الذي نال مكانة مرموقة في التاريخ العربي، فإن شموخه به زاده بصيرة لأن يرى نفسه من متقدّمي الفحول وأسبقهم إلى الإجادة في معظم إبداعه الفني الذي فاق به معظم الشعراء، وعكس عقلية كبيرة نافذة على الرغم من صغر سنه، امتثالاً بقول أخته الخرنق الشاعرة في رثائه:

عددنا له ستاً وعشرين حجة   فلما توفاها استوى سيداً ضخماً
فجعنا به لما رجونا إيابه   على خير حال لا وليداً ولا قحما

ولك أن تعود إلى أمهات الكتب لتطلع على سعة شهرته والإحاطة بشيء من رحلاته التي قدّرت له هذا العمر القصير بهذا الشعر الرصين.

وإذا كان ابن سلام قد وضعه في الطبقة الرابعة مع عبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة، وعدي بن زيد، فليس من شك في أن السبب يرجع إلى قلة ما وصله من شعره، وهو ما صرّح به في بداية حديثه عن الطبقة الرابعة بأنهم «أربعة رهط فحول شعراء، موضعهم في الأوائل، وإنما أخلّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة». هذا فضلاً عن شهرته بمعلّقته التي اعتبرها طه حسين من أحكم الشعر وأعذبه.

لست ببالغ مبلغ إظهار مكانة طرفة بالقدر الذي رواه الرواة حيث وجدوا فيه شخصية

جذابة لحداثة سنه، ولكن، حسبك أيها القارئ من الشاعر، وأنت تقرأ هذا الديوان، أن تتعرف على أنه شاعر مفكّر، تشعر حين تطالع شعره أنك تقف إلى شعر ينبض بألوان الأزاهير، وسلامة الذوق، وحسن التيسير في إيضاح الصور. وبحسبك مني ـ أيضاً ـ أن ترى منزلته من نفسي حين قمت ببحث مفصل طبع في كتاب : «القيم الفكرية والجمالية في شعر طرفة بن العبد» بمؤسسة الأيام في دولة البحرين سنة ١٩٩٨م. كنت قد أثبت في هذا البحث أن طرفة ابن العبد واحد من النخبة الأولى من الشعراء المتقدمين الذين عبروا عن عواطفهم وأفكارهم، فكان ذلك بمثابة: «نزعات فكرية» أو ما يمكن تسميته بـ «المثالية الخلقية» في نظرته للإنسان وما ينبغي أن يكون عليه، في شعر علقت به النفوس كما في قوله:

إذا كنت في حاجة مرسلا فأرسل حكيماً ولا توصه

أو قوله :

وإن ناصح منك يوما دنا فلا تنأ عنه ولا تقصه
وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيباً ولا تعصه

ولك أن تتأمل في قراءة هذا الشعر لتجد التعمق في مستوى التفكير السليم، والوعي الأخلاقي الذي ميّز شعره على نحو قوله بشأن تهذيب العقل والتفكير السليم:

إذا قلت فاعلم ما تقول ولا تقل وأنت عم لم تدر كيف تقول

على هذا النحو، كان شعره قدوة: في سداد الرأي، وصفاء النفس، ونقاء الضمير. وفي هذا ـ أيضاً ـ أحد السبل المؤدي إلى إدراك قيمة التأمل المستمد من ضمير الوجدان الأخلاقي بدافع الفطرة، وهو ما عبّرت عنه الفلسفة الإسلامية ـ فيما بعد ـ بـ «أحكام العقل النظري».

ولا إخال القارئ بعد هذا كله إلاّ قد فهم الفائدة من وراء طبع هذا الديوان تقديراً للمستوى الفكري، وإظهاراً للقيم الجمالية في شعره وما أكثرها وأشدها وقعاً في النفس.

وإذا كان لا بد من قول حق في هذا المقام فهو إسداء الشكر، والثناء الجميل إلى مقام المشرفين على إدارة الثقافة والفنون على تلفّتهم إلى إعادة طبع هذا الديوان بملء الفخر

والاعتزاز بهذا الشاعر العظيم. فهنيئاً لدولة البحرين على إعادة الاعتبار لشاعرها الفحل «فتى الفكر»، فتى الاعتبار في الوعد والوعيد، بظهور هذا الديوان بصيغته السليمة، وعلى الشكل الذي يليق ، ملبية حاجة نشء الجيل الحاضر، ولتستنير به قوافل المدلجين، ويتلقاه المتذوقون، كما يتلقى الظمآن الماء النمير بنهلة راوية. والله الموفق.

المنامة ٢٠٠٠/١/٢